وقال رسول الله ﷺ: "إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه".

وقال رجل للنبى ﷺ: يا رسول الله، إن شرائع الإسلام قد كثرت على فأخبرنى بشئ أتشبث به، فقال: لا يزال لسانك رطبًا من ذكر الله تعالى".

وكان النبى ﷺ يقول: يقول الله تعالى: "أنا عند ظن عبدى بى، وأنا معه إذا ذكرنى، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم".

الجهاد الأكبر

قال رسول الله ﷺ: "رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، ولما سئل ﷺ عن الجهاد الأكبر، قال: جهاد النفس، فى ذلك أصل عظيم من أصول التصوف الإسلامى، لا يعادله فى عظمته إلا ما ورد فى الحديث الآخر المتواتر عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذى ذكر فيه: الإسلام، والإيمان، والإحسان. حين سئل عن الإحسان ما هو؟

فقال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وهو الأصل العظيم لاستمداد التصوف من السنة المطهرة بعد الكتاب الحكيم، وبين هذين الأصلين الكتاب والسنة مجاهدة النفس الأمارة، مراقبة الله فى العمل، وسائر مقامات التصوف، كالتوبة، والإنابة، والصبر، والرضا، والتوكل. وأيضًا أحوال الصوفية كالحب، والأنس، والخوف، والرجاء، والمشاهدة.

وفى قول رسول الله ﷺ فى تعريف الإحسان للسائل: "أن تعبد الله

كأنك تراه" وذلك مقام المشاهدة آخر مقامات التصوف، وقوله "فَإِنَّهُ يَرَاكَ" "فإن لم تكن تراه فإنه يراك" فذلك مقام التقوى والمراقبة ـ ومحله فى مقامات السلوك بعد التوبة والإنابة. ففى الأول يشهد السالك الحق سبحانه وتعالى متجليًا عليه بإحسان، وفى الثانى يشهده رقيبًا عليه فى سائر أعماله وأحواله. فإذا أضفنا إلى ذلك من أخلاق رسول الله ﷺ ومن أحواله مع الله كثرة الخلوة والتبتل والذكر والتفكير حكمنا محقين بأن السنة المطهرة بعد كتاب الذكر الحكيم من أهم مصادر التصوف الإسلامى بإجماع المسلمين، وإجماع سائر المقربين من الصحابة والتابعين والأئمة المخلصين.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ (الذاريات ٥٦، ٥٧، ٥٨)

اليوم أكملت لكم دينكم

قال ابن إسحاق: "لما كان يوم الإثنين .. خرج رسول الله ﷺ عاصبًا رأسه إلى الصبح، وأبو بكر يصلى بالناس، قال: فلما فرغ من الصلاة أقبل على الناس فكلمهم رافعًا صوته حتى خرج صوته من باب المسجد يقول: أيها الناس، سعرت النار، وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، وإنى والله ما تمسكون على بشئ، وإنى لم أحل إلا ما أحل القرآن، ولم أحرم إلا ما حرم القرآن.

وقالت عائشة: رجع إلى رسول الله ﷺ فى ذلك اليوم حين دخل من المسجد فاضطجع فى حجرى .. قالت ووجدت رسول الله ﷺ يثقل فى حجرى فذهبت أنظر فى وجهه فإذا بصره وقد شخص وهو يقول بل الرفيق الأعلى من الجنة.

قالت: فقلت: خيرت فاخترت، والذى بعثك بالحق.

قالت: وقبض رسول الله ﷺ عن هذه النهاية وما صحبها وما أعقبها يقول القرآن: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾ (المائدة ٣)

ويقول: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ (آل عمران ١٤٤)

تم بحمد الله تعالى وتوفيقه